

العدوان المرتد إلى الذات ... عنف آخر

د. جمال التركي - الطب النفسي / تونس

turky.jamel@gnet.tn

إن مشاعر القصور و الدونية و الوعي بالهزائم و التبخيس المستمر لقوى الذات العربية و قدراتها و للنحن و لتجربتها في الوجود الراهن و في التاريخ، و ما إلى ذلك أيضا من مشاعر بالحقد إزاء القاهر الوطني و الأجنبي، و التوتر من جراء الانجرافات الكثيرة المتكاثرة، و التقصير و الفشل في التكيف مع حضارة الأقوياء في المعمورة، كلها عوامل لا تجد لها خفصا و لا تصريفا صحيا. بذلك ترتد العدوانية و العنف إلى الذات التي تنشطر إلى جلاذ و ضحية أو إلى قاض يدين و يؤثم و يعاقب و إلى متهم يدان و يتلقى العقاب.

إن العجز عن تدمير الصورة السيئة للذات، المتوازي مع العجز و اليأس أمام تحقيق الصورة المثالية للذات، هو شعور يرتد إلى الذات المنشطرة و السيئة التوافق و الناقصة التكيف. من هنا الانفجارات هنا و هناك، والهروب السلبي من خطر الاندثار و من خطر التفكك. إن في الحط من قيمة العرب، يأتي من العرب أنفسهم، أي في لوم الذات و تسفيلها و في إكبار العدو، إوالية تكيف سلبية ندافع بها عن أنفسنا، و نخفف من توترنا، و نستعيد التقدير الذاتي للذات. فتدوتنا في أعدائنا القواهر تصريف خلل في الاتزان، و تفريح، و توفير "صحة نفسية" هي وقتية وهمية غير إيجابية ... و من الوجهة المقابلة فعلينا التنبيه إلى الخطر الآخر يتمثل في التهرب من النقائص و العدوانية و مشاعر الفشل بإسقاطها على القواهر الخارجية و على أعداء نخلقهم بأنفسنا بشكل لا واع و لأهداف لا واعية.

أ. د. علي زرعوم - التحليل النفسي للذات العربية - دامر الطلبة - بيروت، لبنان

في هذا العدد

لم يكن في نيّنا إعداد ملف ثان عن سيكولوجية العنف، لكن وفرة الأبحاث التي تناولت العنف من أوجه أخرى حتمت علينا العودة للموضوع في ملف تقدم فيه قراءة سيكولوجية العنف الآخر، العنف اللامعلن (الخفي، المستر، المبطن) الذي لا يبدو عنفا في ظاهره، لكنه أحيانا يكون أشد قسوة و ضراوة من العنف المعلن، ففي حين يتم التعرف ببسر عن العنف المباشر ويكون بالإمكان حماية الذات منه و الإفلات من قبضه، إلا أن العنف اللامعلن يتعد إدراكه إلا بعد أن يحيط بالإنسان، بعد أن يقع ضحيته، إنه عنف مبطن يطلقه صاحبه مبسما فظن أنه الخير كل الخير... استوقفتنا هذا النوع من العنف الذي استهل بمقالة ليحيى الراخوي (مصر) عن "اللعابويعي... و أسلحة الدمار الشامل" بين كيف أصبح من الممكن أن ندخل إلى الوعي ببرامج مقحمة ليست بالضرورة لصالح التطور أو الوجود الأرقى أو الجمال أو الإبداع، وكيف من الممكن أيضا تخليق غرائز استهلاكية قاتلة، إقحام غرائز أيديولوجية زائفة، تجميد غرائز دينية راسخة، و حشر معلومات اغترابية مدمرة، تماما مثلما يفعل الساديون أو العاشون حين يحمون فيروسا مهلكا في الكمبيوتر، ليخلص أن اللعب في الوعي يتم بالتشبيث و التقطيع و التشويش، يتم بالحبث و الكذب و الوعود و دغدغة الغرائز منفصلة، معتمدا آليات الإغراق بالإلحاح المتماذي و التكرار المتنوع و الملاحقة و الإهلاء بالتهميش و عرض القضايا الزائفة و تقديم المحدثات الجديدة، ليكون الناتج بالنهاية المراوحة بين التبدل و العجز و الإهانة و التهميش حتى لا يعود الإنسان إنسانا أصلا، هذا إذا ما بقي على الأرض دون انقراض. و من عنف اللعب بالوعي إلى "ظاهرة العنف السياسي" في رؤية سيكولوجية من منظور مقارن يقدمها قدرتي محمد حفني (مصر) مبينا أنه أحد

يأتي العدد الخامس من المجلة الإلكترونية متأخرا عن موعد صدوره للاختلال الحاصل بين محدودية الجهد و كثافة المادة العلمية، كما إلى حين نعتقد أننا وصلنا إلى مرحلة من التوازن نستطيع التوفيق فيها بين جهدنا و مسؤولياتنا تجاه إعداد المجلة و التحديث الدوري لبوابة الشبكة، (إلى جانب مد بريد قائمة المراسلات بأخر أخبار العلوم النفسية العربية : مؤتمرات، ندوات، دوريات، إصدارات...). لكن تبين خطأ ما كنا نعتقد تعاملنا مع واقع متحرك (دينامي) على الويب، يتطور بسرعة تفوق قدراتنا و يتطلب جهدا يفوق طاقاتنا، و بما أنه لا خيار لنا في مواصلة هذا العمل سعيا لرفع مستوى لياقة نفسية متردية و حرثا لواقع نفسعربي بالدراسات و الأبحاث الميدانية، (إبرازا للخصائص المميزة لممارساتنا و رسما لملاح المدرسة العربية للعلوم النفسية). فإن مواصلة رسالتنا العلمية لا جدال فيه، خاصة بعد أن أضحت بوابة الشبكة من المصادر الأساسية للبحث على الويب في ميدان العلوم النفسية العربية، و بعد أن حظيت المجلة الإلكترونية بالتقدير الذي مكّمها تبوأ منزلة محترمة بين الدوريات النفسية العالمية. كل هذه "المكاسب" تدعونا للتمسك بما حققناه أملين بتجاوزه لاحقا الأمر الذي يتطلب تكثيف إمكانيات أوفر و تعزيز الفريق العامل حفاظا على مبدأ الاستقلالية و الحيادية العلمية الذي التزمنا به، و لن يتسنى ذلك دون ولوج خدمات الاشتراكات المدفوعة و الإشهار (العلمي و الدوائي) هذا و إن تمكّنت كل من الشبكة و المجلة الصمود طيلة هذه المدة دون دعم (المعلنين و المصنفين) فقد لا نستطيع مواصلة أداء رسالتها مستقبلا دون ذلك، إن أي مشروع مهما كانت نبل رسالته و أهدافه و مهما كان دعم مؤسسيه، إن لم يستطع في مرحلة من مراحل الاعتماد على موارده الذاتية فهو إلى زوال حتما إن أراد التمسك باستقلاليته و بالنهج العلمي الذي رسمه بعيدا على الوصاية و التبعية.

الإطار السوسيوولوجي المفسر لهيمنة ثقافة السلاح على الطفولة العراقية. كما يعرض قاسم صالح (العراق) في قراءته لـ "صياغة ثقافة الإرهاب" لمسؤولية النظام التربوي العربي في صياغة عقولها عودها أن "تستقبل" لأن "تجاوز" وجعل منها عقولاً لا ترى إلا الذي أمامها في خط مستقيم وإن استدارت فبتوجه من سائرها. هذا إضافة إلى أن اغتراب الفرد العربي عن سلطته نجم عنه فقدان المعنى والهدف في الحياة فصار معظم الشباب موزعاً بين القديم والحديث قسم نزع إلى ماضوية سلفية وقسم إلى حداثة مغتربة ممثلاً كلاهما الاغتراب عن المجتمع والذات. ونحتم هذا الملف عن البطالة كمظهر آخر من مظاهر عنف الاستبداد والحرب في قراءة سيكولوجية لفارس كمال نظمي (العراق) أكد فيها أن صاحب "الشهادة الأكاديمية" المعطل قسراً عن العمل هو عقل قطع نسله الفكري وعلقت نزعته الاجتماعية للفتح بعد أن اندرجت جهوده لبناء شخصيته العلمية، مقدماً لنا تقديرات مفزعة عن نسبة البطالة في العراق والتي بلغت حسب تقديرات الأمم المتحدة نسبة 72%. كما يعرض نتائج مسح معلوماتي عن حاملي شهادات أكاديمية عاطلين عن العمل تبين من خلاله أن 80% يعانون شعور حاد بالحدق والغيظ والرغبة بالثورة إضافة إلى أخايد مأساوية ملئت من مشاعر الاغتراب والنفور نحو الوطن. بهذه القراءات نختتم الجزء الثاني من ملف "سيكولوجية العنف" آمليين أن نكون سلطناً من وجهة نظر اختصاصنا بعض الأضواء عن هذه الظاهرة الآخذة في الاستفحال لعلنا نساهم من موقعنا في تفكيكها والتصدي لها.

يأتي الباب الثاني للمجلة "أبحاث ومقالات" حافلاً بعدد الدراسات نستهلها ببحث لزياد بركات (فلسطين) عن "تأثير التنشيط الذاتي للذاكرة على التحصيل العلمي" لدى الطلبة باستخدام مساعدات التذكر وقادحات الذاكرة خالص فيه إلى وجود تأثير موجب ودال إحصائياً لاستخدام استراتيجيات التنشيط الذاتي للذاكرة في التحصيل الدراسي لمصلحة الذين استخدموا هذه القادحات، وشاركنا كل من عبد الخالق نجم عبد الله و رعد رحيم صالح (لبنان) ببحث عن "الجوانب المعرفية لأمراض الكلى" لدى طلبة الآداب توصلوا فيها إلى تدني المعرفة بأبسط المعلومات عن هذا المرض مقترحين أن تقوم المراكز الطبية وجمعيات أصدقاء مرضى الكلى بندوات دورية تناول الأسباب، الأعراض والوقاية، ومن الجزائر يقدم بشير معمرية دراسة ميدانية عن "معوقات البحث العلمي في الجزائر" قدم فيها قراءة تحليلية لظاهرة تدني البحث الأكاديمي مقارنة بزمناء في جامعات الدول الأخرى خالص فيه إلى تحديد مجموعة من المعوقات المادية والشخصية تمثلت المادية في نقص إمكانيات النشر، غياب المراجع العلمية، عدم تشجيع البيئة الجامعية للبحث، عدم وجود علاقة بين الجامعة والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، عدم التشجيع المادي على البحث، عدم تأمين العيش الكريم للباحث، قلة اللقاءات العلمية المتخصصة. أما الشخصية فتمثلت في التردد قبل البدء في البحث، وانخفاض الدافع، الانشغال بالالتزامات الأسرية والاجتماعية، الاقتتار إلى الحزم في تنظيم الوقت، سيطرة القلق عند التفكير في القيام بالبحث، والضغط النفسية بسبب

أنواع العنف الداخلي المتمركز حول السلطة، التميز بالرمزية والموجه إلى الفرد بصفته الرمزية، فهو لا شخصي يسم بالجماعية، الإثارية، والإعلانية ويصنف إلى العنف القومي، أو الاقتصادي أو الديني (مخذاً صور العنف المذهبي) إضافة إلى العنف العرقي والجماهيري التلقائي ليخلص أن هذا النوع من العنف تغذية "ثقافة العنف" التي من أبرز ملامحها: إن الآخر إما عميل مأجور أو ساذج جاهل، إنه لم يعد الحوار يجدي معه، فهو خارج على الأصول الصحيحة يريد لنا الاغتراب عن الواقع ولا يمثل إلا أقلية وأنه مهما قال أو فعل فهو يظل في جوهره كما هو مضيئاً أنه لا خلاص من آلم العنف السياسي إلا بالدعوة إلى التفرقة بين الفكر والسلوك والعنف والتعصب ومواجهة كل ما يناسبه مع رفع القيود عن الحرية الفكرية.

وفي قراءة سيكولوجية انعكاسات الحرب على الأسرة اللبنانية تعرض منى فياض (لبنان) للمتغيرات الكثيرة التي طالت وضعية المرأة والمسئلة في: هجرة الفتيات وتهجيرهن، هدم بعض القواعد الأخلاقية ورفع المحرمات (حالات زنى المحارم والعنف الجنسي) مقدمة بعض الحالات الميدانية، تعرض في نهاية بحثها الآثار الجانبية للاعتقال بالنسبة للزوجة والأبناء أو الأسرى (بعد الاعتقال/ بعد التحرير) مستخلصة ضرورة رفع الزيف عن صورة أنفسنا والتحلي بالصدق والشجاعة من أجل مساعدة الأجيال القادمة للعيش في جو صحي متوازن. ونحتم هذا الملف بقراءات موجزة لسيكولوجية العنف الآخر يعرض فيها يحيى الرخاوي (مصر) لـ "العنف الخفي" الذي يأخذ أشكالاً متعددة منها العنف بالإغفال (الإلتكار)، العنف بالحرمان، العنف بالترك، العنف بالافعل، العنف بالإعاقة، والعنف من خلال البراءة الكاذبة، مؤكداً أن عكس العنف ليس التسامح أو الرقة أو اللين أو الطيبة أو البراءة، ولكن العدل، والحوار، والعدوان الإيجابي الخلاق، كما يقدم قدرتي حفتي (مصر) قراءة في "صناعة الجنون" مبيناً فيها أن التطور الذي شهدته هذه الصناعة نما مع تطور المجتمع حتى أصبحت صناعة ضخمة لها مؤسساتها الإعلامية والتقنية والفكرية، وهي تعمل من خلال إلغاء أهلية المواطنين وتحويلهم إلى رعايا لا يملكون من أمرهم شيئاً، وذلك من خلال إقناع الضحايا أنفسهم بذلك الهدف بحيث يصبح العزوف عن اتخاذ قراراتهم بأنفسهم قيمة إيجابية تحكم تصرفاتهم تلقائياً، ويصبح التساؤل عن الأسباب تهمة يتبغي فيها والاعتذار عنها، ويؤول الأمر كله لأولي الأمر يتولون عن الجميع مهام الإعاشة والحماية كما يرون بالشكل الذي يروق لهم وبالقدر الذي يتفق مع مصالحهم. ومن العراق يشاركنا فارس كمال نظمي بقراءة سيكولوجية عن "الاحتلال و ثقافة السلاح" من خلال تحليل محتويات بعض أعداد مجلة مصورة للأطفال يصدرها الجيش الأمريكي، بين فيها كيف يتم إقناع الطفل بفكرة أن "العالم مكان عدائي" يستحق القلق والحيلة والتثبت وكيف تبث مشاعر التعصب والوطنية تحت شعار التسامح والتعددية، إضافة إلى محاولة تثقيف الطفل بأنواع الأسلحة ومصطلحاتها الأمر الذي يساهم في تنمية قيم العنف الآتية مضافاً إليها ما تراكم خلال أربعة عقود دموية، مشكلة

النفس (طنطا، مصر) وأخيرا المؤتمر الثاني للجمعية النفسية السودانية (الخرطوم) حول "علم النفس التطبيقي وثقافة السلام". كما نعرض في باب إصدارات حديثة لأربعة كتب: "مدخل إلى سيبرنطيقا التفكير"، "الوسواس القهري"، "مشاهد من على كرسي الطبيب النفسي" و "الخدمات النفسية على الإنترنت" لكل من سليمان جار الله (الجزائر)، محمد شريف سام (مصر)، خليل محمد فاضل خليل (مصر) و بسام عويل (بولندا - سوريا) وفي باب الدوريات الحديثة نعرض إلى ملخصات المجلة العربية للطب النفسي (الأردن) في العدد 2 المجلد 15 (نوفمبر 2004).

في باب جوائز دولية نقدم تعريفاً بـ "جائزة ابن رشد للفكر الحر" التي تقدمها سنويا مؤسسة ابن رشد (ألمانيا) لشخصيات و مؤسسات عربية ساهمت في عملية تطوير المجتمع المدني نحو الحرية والديمقراطية والحدثة والتي تسلم في احتفالية ذكرى وفاة المفكر العربي ابن رشد الذي أظهر أهمية الفكر العقلاني والبحث العلمي والمعرفة في تطور المجتمعات قبل بداية تطور أوروبا بعدة قرون.

وفي باب قراءات الشبكة تقدم لمشروع شبكة العلوم النفسية العربية في نسخته العربية بالإضافة إلى النسخة الفرنسية التي أشرف على ترجمتها سليمان جار الله (الجزائر) آملين ترجمة هذا النص إلى الإنكليزية مع تجديد الدعوة للزملاء مشاركتنا ترجمة العديد من الأبحاث الأصلية إلى الفرنسية والإنكليزية ذلك أنه لا سبيل لإبصار فكرك إلى الآخر ما لم يتحول إنتاجك البحثي إلى لغة يفهمها فالتوقع على الذات لن يساهم إلا في تعزيز العزلة والانسحاب من عالم لا مكان فيه لمن لم يفتك موقعا له في دائرة الضوء.

بداية من هذا العدد نشرع في التأسيس لباب جديد حول "مراجعة مواقع ويب" بعرض متصل لموقع "الفلسفة الإسلامية" وذلك باقتراح من نعمان الغرايبة (الأردن/أمريكا)، الذي تبناه و نعتبره موقفاً و سنعمل أن يكون من الأبواب الثابتة آملين مشاركة الجميع بتقديم المواقع الهامة خاصة وأن الشبكة تعج بمواقع احتلظ فيها الغث بالسمين، الأمر الذي يجعلنا في حاجة ماسة للتعرف على المواقع العلمية الرصينة التي يوثق بها و تقدم إضافة للمتصفح الباحث عن المعلومة الصحيحة.

وفي ختام هذا العدد تقدم الأبواب الثابتة "انطباعات أساتذة علم النفس عن الشبكة" و "قراءات ملخصة للأبحاث الطب نفسية" الصادرة في الثلاثية الأولى لسنة 2005 إضافة إلى تمة ترجمة بعض مصطلحات الحرف الأول من المعجم الإلكتروني للعلوم النفسي بلغاته الثلاثة العربية و الفرنسية والإنكليزية.

إلى أن نلتقي ...

وجود مشكلات خاصة. إضافة إلى معوقات أخرى تتعلق بـ: الشعور بعدم الجدارة، نقص الإيمان بأهمية البحث العلمي، والخوف من رفض البحث من قبل جهة النشر، مسابرة الزملاء الذين لا يمارسون البحث العلمي، التأثير بالمنطق القائل: الجزائر ليست بلدا للعلم، صعوبة الحصول على موضوع جدير بالبحث، وعدم الميل إلى ممارسة البحث العلمي. ليخلص إلى جملة من التوصيات تجاوزا للمعوقات ودعما لمكانة البحث العلمي في الجامعة. إن الأساتذة في الجامعات العربية يحرثون في أرض صعبة المراس ولكن الإنسان يبقى قادر بإصراره تحدي المعوقات ولا أدل على ذلك ما يقدمه لنا الزملاء العراقيين من أبحاث، وما البحث الأصيل الذي قدمه لنا كمال فارس نظمي "علم نفس الحاسوب... نحو قراءة تصنيفية" إلا دليل هذا، حيث بين في دراسته أن العلم وإن كان حيادياً في مادته النظرية، فإن النشاط العلمي (تكنولوجيا المعلومات) غير حيادي في تطبيقاته. ولذلك وجب التوكيد من منظور نفسي، على ضرورة تجنب المجتمعات النامية الانبهار بالمعلوماتية، لأن بإمكانها أن تلغي تفكير الإنسان. كما أن عليها الاستفادة إلى أقصى الحدود من هذه الثروة والثورة المعلوماتية، سعياً لتطوير إنسانيتها واتزان حقوقها، دون أن تنسى أن الغاية هي "المعرفة" وليست "المعلومات". ومن أمريكا يشاركنا نعمان الغرايبة بمقالته عن "التعددية اللغوية في الطب النفسي والتعريب بالبلاد العربية" خلص فيها إلى أن التعدد اللغوي يحقق إنجازات عديدة أهمها المحافظة على الخصوصية الثقافية والحقا بركب العلم في الزمن الحقيقي، إلى جانب تجنب حساسيات الانشقاقات الداخلية تجاه التعريب وحصول الطبيب النفسي على المعلومات الموقفة مع تجنبه إضاعة المال والوقت والجهد في الترجمة إلى العربية مع التركيز أن الحاجة ملحة في ترجمة الأبحاث العربية إلى لغات أخرى. يشاركنا أخيراً في هذا الباب كل من رمضان زعطوط و عبد الكريم القرش (الجزائر) بدراسة ميدانية عن "قابلية التواصل لدى الأطباء العاملين بالجزائر" مقارنة بزملاتهم الفرنسيين خلصوا فيه إلى تدني كفاءة التواصل لكل من العينة الجزائرية و الفرنسية مع اختلاف دال للعينة الجزائرية حسب السن وأقدمية الممارسة. و نعرض في ختام هذا الباب للملخصات بعض الأبحاث والمقالات: "المرأة المصرية و المرض النفسي"، "المرأة والإحساس بالألم"، "العلاج العائلي لمرضى الفصام"، "سيكولوجية اللعب وعلاقته بمراحل النمو" لكل من داليا مصطفى، منال القاضي، محمد أحمد النابلسي ونهلة أمين أحمد.

أما في باب جمعيات العلوم النفسية فنعرض لتعريف بـ "الجمعية الدولية لأخصائيي علم النفس المسلمين" و مجلتهم "مجلة الصحة النفسية للمسلم"، وفي باب مؤتمرات تقدم برامج عدة مؤتمرات: المؤتمر المصري 21 لعلم النفس، الملتقى الدولي الخامس لوحدة الأبحاث النفس مرضية (تونس)، المؤتمر العلمي التركي الرابع لاضطرابات الفلق (تونس)، مؤتمر الإرشاد في الدول العربية (مصر)، ملتقى المستجدات التصنيفية في طب نفس الطفل (تونس) و المؤتمر الدولي الأول لقسم علم